عرفت هؤلاء

بقلم : أنور السادات

كان الجو عاصفا ، وشديد البرد ، والرؤية غير واضحة . وجاءت السيارة النقل واقتربت من حافة النيل لتكون بقرب الحجارة المطلوب نقلها . وفجأة فوجئنا بالسيارة تتزحلق ، وتهوى ، وتختفى تماما تحت الماء!

ولم أعرف ماذا أفعل؟ ولم أجد أمامي سوى الأوفياء .. سكان قرية مزغونة ، لاستنجد بهم . تصورت أن من الممكن ان يأتي معي خمسة ، أو حتى عشرة ، من أبناء القرية الذين تعارفت عليهم وصادقتهم . ولكن المذهل ـ حقيقة ـ ان يهب عشرات من أهل القرية ، الذين اعرفهم والذين لا اعرفهم ، وتسابقوا جميعا من اجل البحث عن وسيلة لانتشال السيارة الغارقة تحت الماء!

الأوفياء أنقذوا السيارة الغارقة!

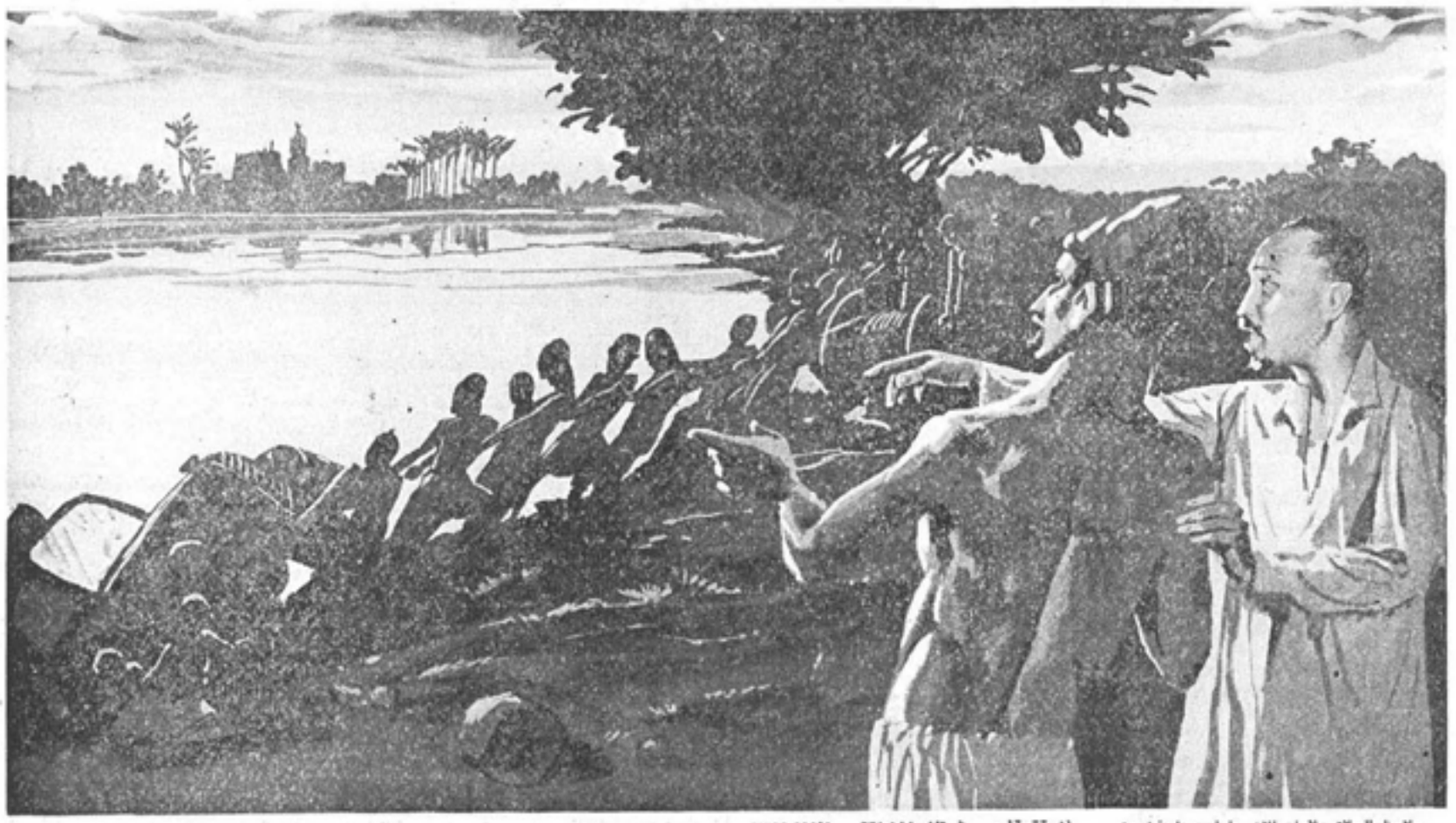

كنت اعتقد انني نجحت في اخفاء شخصيتي الحقيقية ، عن جميع اهل القرية التي اقمت فيها خلال الفترة التي عملنا فيها هناك ، في نقل الحجارة القائمة من طرة عن طريق المراكب النيلية ، وننقلها بالسيارة الى مكان رصف الطريق عند قرية مزغونة .

فالذي كان يراني في تلك الأيام لا يمكن ان يتصور ان هذا الرجل الواقف امامه ، الذي اطلق لحيته ، وارتدى الجلباب ، ويشرف على نقل الحجارة بالسيارة النقل القادم بها من القاهرة ، هو نفسه ضابط الجيش الذي استطاع ان يهرب من المعتقل ، ويختفي عن الانظار ، ثم يظهر في كل مكان ـ بعد ذلك ـ في شخصية جديدة ، ولا يشتبه فيه أحد !

امضيت عدة ايام في قرية مزغونة ، تعرفت خلالها على معظم سكان القرية ، وسكنت في شقة صغيرة بأحد منازلها ، وجالست اهلها في المقهى والمطعم ، ولم اشعر بأي قلق او خوف من اكتشاف حقيقتي ..

ولكن سرعان ما فقدت هذا الاحساس بالاطمئنان ، عندما جلست اقص شعر رأسي عند حلاق القرية الوحيد ، ففوجئت بعربة جيش تقف امام محل الحلاقة ـ الذي يطلق عليه صاحبه « صالونا » ـ وينزل منها ضابط جيش نظر الى ، ولم يبد اى حركة يفهم منها انه عرفني ، او يشك في أمرى . لم يحاول ان يتحدث معي ، ولم يعر حديثي مع الحلاق اى اهتمام . فتوهمت انني نجحت في خداعه ..

وغادرت صالون الحلاقة ، واثقا في ان كل شيء على ما يرام . وان احدا لن يكتشف حقيقة الحاج محمد نور الدين .

ولكن سرعان ما تبددت تلك الثقة ، في اليوم التالي مباشرة ..

كنت في طريقي لتناول طعام العشاء في المطعم الوحيد بالقرية ، عندما مررت من امام المقهى ، ففوجئت بالحلاق جالسا ومعه ضابط بوليس النقطة !!

وكانا يتبادلان الحديث الخافت ، ثم توقفا ـ فجأة ـ عن الحديث بمجرد ظهوري امامهما ! او هكذا تخيلت ...

وواصلت سيري حتى المطعم ، وجلست وحيدا اتناول طعامي دون أن اتذوق له طعما . فقد كنت في حالة يرثى لها . كنت واثقا تمام الثقة في ان الحلاق كان يتحدث لضابط البوليس عنى .

والا .. فلماذا كل هذا الاهتمام بالحديث ، الذي سرعان ما توقف بمجرد اقترابي منهما ؟!

اخذت اتخيل ماذا قال الحلاق عني ؟ وماذا سأل ضابط البوليس ؟ وماذا كان الاتفاق بينهما ؟

وتتابعت اسئلتي ..

وازدادت حيرتي ..

ولم اعرف كيف اتصرف ، ولا ماذا افعل !

وانتهيت من تناول طعام العشاء ، وغادرت المطعم الى منزلي مباشرة . لم اكن في حاجة الى الجلوس مع العمال في المقهى ، كعادتنا كل مساء . كنت اريد ان اختلي بنفسي داخل غرفتي افكر في امرى ، وفي كيفية مواجهة هذه المشكلة التي يمكن ان تقلب كل ما خططته لنفسي في هذه الرحلة .

ولم استطع ان انام في تلك الليلة ، ولم يتركني من القلق ، والتفكير ، الا ظهور الشمس في صباح اليوم التالي ، فغادرت فراشي ، والنزل ، مبكرا ، وذهبت الى العمل لانسى في زحمته مخاوفي ، وشكوكي . وبالفعل استطاع العمل ، ومشاكله ان يبعد تفكيرى عن الورطة التي وجدت نفسي ـ فجأة ـ مطالبا بمواجهتها !

وعند الغروب ، توقفنا عن العمل ، فعاد بي التفكير الى ما لا يمكن تجاهله ، او تأجيله . فقررت ان اذهب الى الحلاق لاضع حدا لشكوكي ، وظنوني . وبالفعل توجهت الى صالون الحلاقة ، ولم اهتم بالتوقف قليلا عند منزلي ، اولا ، لاغسل وجهي واغير ملابسي . وقام الحلاق ليرحب بي ـ كعادته ـ بنفس الحفاوة التي عودني عليها من قبل . فالرجل كان ـ على ما يبدو ـ معجبا بشخصي . فهو كثير السؤال في قضايا كثيرة ، ويجد مني فهما لم يره الذي تعود عليه من باقي زبائنه من أهل القرية البسطاء .

وصافحته ، وحاولت أن اجد اى مبرر لزيارتي له ، للمرة الثانية في اقل من ٢٤ ساعة . ولم اجد على قسمات وجهه اية دهشة ، لحضوري الى صالونه . بل تأكدت ـ فيما بعد ـ من انه كان يتوقع تلك الزيارة مقدما !

وجدته يبتسم لي ، ويقول ووجهه كله ينطق بالسعادة والزهو بكلماته :

ـ اسمع يا حاج محمد .. انا ما نهتش فيك !

وكانت مفاجأة عنيفة ، لم اجد ما اقوله ردا عليها سوى الصمت ، انتظارا لسماع المزيد من مفاجآته .

وعاد الاسطى الحلاق يقول :

ـ الحقيقة ان الضابط زميلك في الجيش عرفك ، وقال لي كل شيء عنك !

ولاحظ الحلاق علامات الاضطراب بادية فوق وجهي . فأسرع يقول لي مهدئا ، ومطمئنا :

ـ اياك ان تظن انني قلت عنك كلمة واحدة لضابط البوليس الذي رأيتني معه في المقهى ، أمس .

اطمئن .. فانت لا تعلم كيف ازداد اعجابي بك ، عندما سمعت عن شجاعتك ، وعن كفاحك من اجل بلدك ، واهلك ، من زميلك ضابط الجيش الذي تكلم عنك بكل حب ، وخير .

وانتهى حديثي مع الحلاق ..

واكبرت في الرجل موقفه الذي لا يمكن ان انساه . لقد تعرفت عليه ، وقدمت له نفسي كمقاول نقل بضائع . وشاءت الصدف أن يكتشف هو بنفسه حقيقة أمرى . وعلى الرغم من ذلك لم يحاول ابدا ان ينطق بكلمة واحدة مني . لم يذهب الى ضابط البوليس ليبلغه بالنبأ الهام . ولم يفكر لحظة واحدة في المكافأة المالية الضخمة التي كان يمكن ان يحصل عليها من البوليس مقابل المعلومات التي ان تقدم بها ، ادت الى القبض على ، وترحيلي الى المعتقل مرة اخرى !

لم يفعل الرجل شيئا من هذا كله . لم يخن ضميره ، ولم يضعف امام اغراء المال ، واحتفظ بالسر لنفسه ، ولم ينطق لاحد بكلمة واحدة ، رغم ما عرف عنه من عشق شديد للحديث في القاضي والداني !

وهذا هو المصرى الحقيقى ..

وهذه هي مصر ، الأم ، التي انجبت فاحسنت ، وملأت ارضها بابنائها المخلصين ، الأوفياء .

واستعدت اطمئناني على نفسي ، وواصلت الاشراف على عملية نقل الحجارة ، بالسيارة النقل ، الى مكان رصف الطريق الطويل الذي يصل بين القاهرة واسوان .

وكما قلت في حلقة الاسبوع الماضي اننا كنا ننقل الدبش من موردة الرزازيق ـ وكلمة موردة تعني المكان الذي تقف عنده المراكب النيلية ، لتفريغ حمولتها من الركاب والبضائع ـ ثم انتقلنا لنقل الحجارة الدبش من موردة مزغونة ، بدلا من موردة قرية الرزازيق .

ولم نخطىء هذه المرة ، كما اخطأنا في المرة السابقة ، عندما عملنا في موردة الرزازيق ، قبل ان نتفق مع المسئول عن الموردة ، والذي يتقاضى اتعابه من كل مركب تقف عنده لتفرغ حمولتها ، ومن كل صاحب سيارة نقل تنقل بضائعها من تلك المنطقة . في هذه المرة لم نبدأ عملنا في موردة مزغونة ، إلا بعد ان تقابلنا مع الشخص المسئول عن موردة الرزازيق ، من اجل ان أعتذر له ، وأرد له حقه ، الذي اكتسبه في تلك المنطقة .

وأمضينا الأيام الباقية على انتهاء عملية نقل الدبش ـ الذي يطلق عليه اسم « بروورة » ـ التي تعاقدنا عليها واوشكت على الانتهاء في تلك القرية ، بعد أن ازدادت معرفتي بأهلها ، وتصادقت مع معظم سكانها . وكنت أجد سعادة حقيقية خلال الساعات التي كنت أجالس خلالها ، أهل القرية ، واستمع الى مشاكلهم ، وأحلامهم ، وآمالهم .

حياة القرية لم أجد فيها الجديد فأنا قادم اصلا من الريف . عشت فيه أجمل سنوات عمري . وفي كل مرة كنت أجد فيها وقتا يبعدني عن المدينة ، كنت أسارع الى القرية ، بعاداتها ، وتقاليدها .

الجديد ـ بالنسبة لي ، والذي وجدته خلال اقامتي في تلك المنطقة الريفية ـ فقد وجدته لدى « المراكبية » الذين كانوا يقومون بعملهم باتقان ، وخبرة . ويصعب جدا تصور انهم لم يتعلموه في ارقى المعاهد البحرية !

فالذي رأيته منهم يهرني حقيقة . وكثيرا ما كنت اراقب حركة المراكب النيلية ، واتابع تعليمات « ريس » كل مركب ، التي يبادر رجاله بتنفيذها على الفور . مما يدفعني الى الجلوس اكثر من مرة مع « ريس » المركب ، واستمع اليه ، استفسر منه عن اسرار عالم الملاحة الذي لم اكن اعرف عنه اي شيء قبل ان احضر الى تلك المنطقة .

وهو عالم غريب ، وعجيب ..

ذات يوم فوجئت بعدد كبير من المراكب ، بالقرب من الموردة . ووضح انها لا تتحرك ، وليس هناك ما يستدعي تواجدها في هذا المكان . فلا هي تفرغ حمولتها ، وليس هناك ـ على الأرض ـ ما يمكن نقله اليها !

وسألت عن سبب تواجد هذا العدد الكبير من المراكب المختلفة الأشكال ، والأحجام . فالعمل ـ بالنسبة لنا ـ لم يتوقف ، ولا يجب ان يتوقف . والحجارة التي نقوم بنقلها ، تأتينا بالمراكب النيلية من طرة . وكان الخوف الاكبر ان لا تأتي تلك المراكب ، او ان يزداد عدد المراكب الواقفة امام الموردة ، فلا يسمح بدخول مراكبنا المحملة بالدبش ، وفي هذا خسارة لنا .

وسمعت من المراكبية ، اخر ما كنت اتوقعه .. !

قالوا لي ان حركة الملاحة في النيل يجب ان تتوقف ـ في تلك المنطقة ـ لاننا ننتظر « نوة » ، خلال الثماني والاربعين ساعة القادمة !

هكذا عرفوا ، تنبأوا بنشرة الاحوال الجوية ، والملاحية ، كأحسن ما تكون النشرات التي يصدرها خبراء مصلحة الأرصاد الجوية !

وقالوا لي ان الجو سينقلب ، والرياح ستشتد ، ولذلك فان عليهم ان يقفوا بلا حركة في منطقة « متغطية » ـ على حد تعبيرهم ـ حتى يتحسن الجو ، بعد انتهاء « النوة » التي تنبأوا بحدوثها . والمدهش ان كل ما توقعوه ، حدث بالفعل ..!

تكهرب الجو ، واكفهر ، واشتدت الرياح ، وساءت الرؤية وتعثرت ، وتوقفت الملاحة تماما في نهر النيل . ودخل الملاحون الى بطن مراكبهم ، وجلسوا داخلها ، بعيدا عن البرد القارس فوق السطح . اما نحن فقد واصلنا عملنا في نقل الدبش ، الذي كان قد وصل قبل ان تبدأ النوة ، وقبل ان تتوقف حركة الملاحة ، تماما .

في هذا اليوم شديد البرودة ، شديد الرياح ، وصلت سيارتنا النقل ، القديمة ، العتيقة ، وهي طراز « فورد » القديم جدا . وكعادة السائق فانه عندما يصل الى الموردة ، فانه يدخل اليها بمؤخرة السيارة ، وليس بمقدمتها ، وذلك حتى يسهل نقل الدبش اليها .

وهذا ما حدث بالفعل ، وجاءت السيارة ، وتوقف السائق ثم دار بها نصف دائرة ، ودخل الموردة بمؤخرة السيارة ، حتى توقف بالقرب من حافة الطريق ، وعلى بعد خطوة واحدة من النيل . وفجأة ، رأينا السيارة تنزلق ناحية النيل ، وتسقط في مياهه ، وتختفي في اعماقه ! حدث هذا في ثوان . لم نصدق ما رأيناه ! تصورنا اننا نحلم . او ان سوء الرؤية ، وشبه الاظلام نتيجة اختفاء قرص الشمس وراء السحب الكثيفة ـ هما السبب فيما تصورناه حقيقة ..

وهو حقيقة بالفعل !

وكانت كارثة ، بكل المقاييس ..!

ولم نعرف كيف نتصرف ، ولا ماذا نفعل ؟

تصورنا ان السيارة فقدت ، ويعوضنا الله عنها ..

فالسيارة اختفت تماما تحت سطح الماء . ومعنى ذلك انها على عمق بعيد . فكيف يمكن انتشالها ، وسحبها ؟

ولم نجد حلا ..

ثم تنبهت ـ فجأة ـ الى انني في الريف ، بين الأوفياء ، بين ابناء شعبنا العظيم ، والذين نجدهم دائما عندما تواجهنا الصعاب ، والأزمات .

ولم اتردد ..

وذهبت ـ على الفور ـ الى قرية مزغونة التي عرفت اهلها ، وعرفوني . وتقابلت مع بعضهم ، وحكيت ما حدث لسيارتنا في كلمات معدودة . وكما توقعت تماما ، وجدت اهل مزغونة يهبون جميعا ، كرجل واحد ، وبعزيمة واحدة ، وسبقوني في الذهاب الى المكان الذي سقطت فيه السيارة في النيل .

قلت انني تحدثت الى عدد من سكان القرية ، يعدون على اصابع اليد الواحدة ، ففوجئت بعشرات من رجال ، وشباب ، وشيوخ ، القرية يتسابقون للوصول الى مكان الموردة التي سقطت عندها السيارة . جاءوا بلا دعوة . ارادوا المشاركة في انقاذ السيارة ، بلا تكليف من احد ، سوى حبهم لعمل الخير ، وحرصهم على مشاركة غيرهم في مواجهة مشاكلهم ، وازماتهم . وهذه هي أخلاق القرية التي لا تتغير ، ولا تتبدل أبدا .

ووقفنا جميعا عند الحافة ، نفكر فيما يمكن عمله . ولم تمض سوى دقائق معدودة ، الا وفوجئت بشاب قوى ـ من ابناء قرية مزغونة ، يخلع ملابسه ـ في عز البرد القارس الذي حدثتكم عنه ـ ويقفز بلا تردد ، ويختفي في النيل ! لم يطلب منه احد ان يفعل ما فعل . ولم ينتظر ـ هو ـ أن يطلب منه ذلك . ولم يتوقع أن يتقاضى مالا مقابل ما يفعله ، وما قد يتعرض له من مرض . أو اصابات تصرف من تلقاء نفسه ، واتخذ قراره تلقائيا ..

وبعد فترة قصيرة ـ وحرجة جدا ـ عاد الشاب وظهر بعد أن توغل تحت الماء ، وعاين المكان الذي استقرت فوقه السيارة الغارقة .

وبعد أن حددنا المكان ، بدأنا نواجه كيفية انتشال السيارة ..!

واستمعت الى اقتراحات عديدة ..

وفي النهاية جاء ريس مركب بالحل . قال لي :

ـ أولا احمد ربنا ان السيارة كانت فارغة ، والا استحال انتشالها . واطمئن فسوف ترى سيارتك واقفة امامك هنا بعد قليل !

ودون أن ينتظر سماع كلمة شكر واحدة ، رأيت ريس المركب يقفز الى داخل مركبه ، ويختفي لحظات في بطن المركب ، ثم يعود الينا حاملا حبلا سميكا من الحديد ، الذي يطلق عليه اسم « واير » .. وخلع ملابسه ، وغاص في النيل ومعه مساعدوه ، ومعهم الواير الحديد ..

ومرت لحظات تصورتها ساعات ، قلقت خلالها على هؤلاء الأوفياء الذين اختفوا تحت الماء ، وغابوا في الأعماق ، بلا اسطوانة اوكسجين ، وبلا ملابس غوص وقاموا بربط السيارة الغارقة بطرف الواير الحديد من الاكصدام ، ثم عادوا وظهروا امامنا ، ومعهم الطرف الآخر من الحبل الحديدي ، ووضعوا طرف الحبل في ماكينة الجذب ـ فوق المركب ، والتي تستخدم في انزال الهلب ، « الخطاف » ، وسحبه ـ ودارت الماكينة ، فلف الحبل الحديدي حول اسطوانتها ، وبدأ ـ بالتالي ـ سحب السيارة الغارقة .

وبعد دقائق فوجئنا بالسيارة تظهر فوق سطح النيل ، شيئا فشيئا ، حتى تم ـ بالفعل ـ انتشالها ، وتم اخراجها وتثبيتها فوق الأرض !

شيء لم اكن اصدقه ، ولم اكن اتوقعه .

ولكنه حصل ، ولا فضل لأحد فيه ، سوى هؤلاء الاوفياء ، الذين لم يتعلموا في المدارس ، ولم يتخرجوا في الجامعات ، ولكن الذكاء الفطرى المصرى ، هداهم الى حل مشكلة تصورت لآخر لحظة استحالة حلها .

استطاع هؤلاء الاوفياء ان يقوموا بعملهم الكبير ، ولم يطالبوا بثمن ما قاموا به . عرضت عليهم مالا ، فرفضوه بمنتهى الشدة ، والاستنكار . وقالوا لي :

ـ كيف تنتظر منا ان نقبل مالا مقابل عمل الخير ؟ كيف تنتظر ان نوافق على قبول ثمن ما تعلمناه من قيم ، ومن تقاليد ، ومن عادات عرفنا بها ، وحافظنا عليها . انك لم تطلب منا ان نساعدك في حل مشكلتك ، ونحن الذين بادرنا بتقديم هذه المساعدة ، بل هذا الواجب ..؟

ـ ولم اعرف كيف اشكرهم ..

ـ ولم اتمكن من رد جميلهم ..

كل ما خفف عني ، هو انني رأيتهم سعداء بما فعلوه من اجلي . وشعرت حقيقة بانهم قاموا بما فعلوه ، بناء على ما تعودوا عليه .

لم يكن الأمر مجاملة لي . فلم اكن املك شيئا ينفعهم ، او يضرهم . وانما قاموا بعملهم كما يمليه عليهم ضميرهم ، ووفاؤهم .

أنور السادات